«فرحوا فرحاً عظيماً»

تأليف: جيمس ل. ماي

قبل أن نذهب إلى أي مكان، أو ان نعمل اي شيء، نسأل انفسنا عادة: «ما الذي ساستفيد منه؟» وهذا لا يستثنى العبادة. إن كان عليك أن تطرح السؤال، ربما لن تجد الإجابة حالاً. عليك أن تقوم بالذهاب أولاً، أي رحلة مع الله. وفي تلك الرحلة ستعرف الإجابة على سؤالك.

تابع المجوس المذكورين في الأصحاح الثاني من إنجيل متى النجم إلى أورشليم. وعندما وصلوا هناك سألوا أين هو المولود ملك اليهود (آية ٢). فقيل لهم بان النبي ملاخي كان قد تنبأ بانه يولد في بيت لحم. وعندما بدأوا رحلتهم إلى بيت لحم، رأوا النجم مرة أخرى «ففرحوا فرحاً عظيماً» (آية ١٠). يوجد في العبادة فرح. بالنسبة للذين أعتادوا العبادة يوجد فرح حتى في انتظارهم لوقت العبادة.

على الرغم من ان الكتاب المقدس لم يوضح بالتفصيل كيف شعر إبرهيم عندما نزل من جبل المُريّا حيث جُرِبَ هناك إلا أن فرحه يظهر في الاسمَ الذي أطلقَه على المكان: «يهوه يرأه» (ومعناه: الرب يدبر) (تكوين ٢٢: ١٤). يا لتدبير الرب! يمكن للشخص أن يتخيل فقط كيف شعر إبرهيم عندما كان هو وإسحق في طريقهما نزولاً من الجبل. لقد احتفظ بابنه الذي قَدّمه بكل قلبه ذبيحة لله. لا بد انه كان فرحاناً جداً بعد ما صرح له الملاك:

> بذاتي أقسمت يقول الرب: أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطيء البحر. ويرث نسلك باب أعدائه وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي (تكوين ٢٢: ١٦—١٨).

قصة المجوس وقصة إبرهيم توضحان أن: «الذي يتمم رغبة الرب في العبادة تشبع رغباته في الفرح». بينما لا ينبغي أن تكون العبادة لهدف الحصول على هذا الفرح من الرب، إلا انه يكون نتيجة طبيعية للاقتراب إلى حضرة الإله. «كون ان العبادة لا يجب رؤيتها أساساً كمناسبة للحصول فيها على مكافآت شخصية هذا لا يعني ان العبادة ليست لها مكافآت شخصية» (مقتبس من دان جامبرس).

فرح روحي

الفرح الذي يأتي من العبادة ليس كالفرح الدنيوي الناتج عن قضاء وقتاً ممتعاً أو تسلية. الأفراح الجسدية كلها تزول وتتلاشى بسرعة.

هناك فرح عميق تحدث عنه يسوع في إنجيل يوحنا ١٦: ٢٢ عندما قال لتلاميذه: «... ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم». هذا الفرح لا يمكن أن يأتي من التمتع السطحي لحدث مسلي، بل من المعرفة الداخلية للعلاقة الحميمة مع الله. ليس هذا الفرح مجرد أحساس لطيف، بل فرح مولود من سلام وقناعة — أي الذي يهديء عواصف النفس ومكان الراحة حيث تكون الكينونة مرساة على الإيمان بالله.

ذُكر فرح المسيحي في سياق آخر للعبادة. الفرح هو الفكرة الرئيسية المتكررة في رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي. استخدم بولس الكلمة «فرح» بمختلف أشكالها أكثر من سبع مرات في تلك الرسالة القصيرة. في فيلبي ١: ٤ نقرأ عن صلاته بفرح: «مقدماً الطلبة لأجل جميعكم بفرح». وفي ١: ٢٥ نجد عبارة تدل على الثقة بانه قد سمح له بالبقاء مع الإخوة لأجل تقدمهم وفرحهم في الإيمان. وطلب منهم أن

يتمموا فرحه وذلك بان يكونوا واحداً في الفكر والهدف (٢: ٢). وناشدهم أيضاً أن يفرحوا في الرب (٣: ١؛ ٤: ٤). وأشار بولس إلى المسيحيين في فيلبي قائلاً: «يا سروري وإكليلي» (٤: ١) وأكد لهم بانه فرح بالرب جداً بسبب اعتنائهم به (٤: ١٠). الفرح هو النتيجة الطبيعية للعلاقة الحميمة مع الله والمواظبة في عبادته. لقد خلقنا الله لا لنكون عُبَّاد فحسب بل عباد فرحين.

تأتي ثلاثة أشياء على الأقل من الفرح الذي مصدره هو العلاقة الحميمة مع الله. العبادة بطبيعتها تشمل على الاحساس. العبادة الحقيقية تؤدي أيضاً إلى إشباع وتعبر عنها بالتعجب والرهبة.

فرح في القلب

المعرفة بان الاحساس الجيد لا يضمن بأن تكون عبادتنا حقيقية، تجعل بعض العُبَّاد يشكون في التعبير بأي احساس أثناء العبادة. بينما لا ينبغي ان يحدد الاحساس ما نفعل أثناء العبادة إلا ان الشعور بالفرح هو نتيجة العبادة الحقيقية. الشعور يتبع العمل يقول علماء النفس انه من الصعب اصدار الأمر على الشعور ولكن ليس من الصعب الأمر بالعمل. المعرفة باننا ننتمي إلى الله وباننا في حضرته تؤدي إلى الشعور بالفرح. العمل على حسب مشيئة الله المعلنة عن نفسه والحقيقة انه خلقنا لنكون عبَّاده تؤدي إلى فرح. لا ينبغي أن نتبع الاحساس فقط، يجب أن نسمح للاحساس ان يتبعنا خلال العبادة وإلى العالم مرة أخرى.

لقد خلقنا الله لنسجد له، وصمم السجود ليكون من القلب. الحديث عن السجود «بالروح والحق» (يوحنا ٤: ٢٤) دون الحديث عن الشعور يكون أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. السبب الذي من اجله يجب أن نسجد بالـ«روح» كما نسجد أيضاً بالحق هو لأن «الله روح» هو بالحقيقة روح فوق الطبيعي. كيف لا نفرح بمعرفة أن أرواحنا قد جاءت إلى حضرة روح الله الذي يسمو على الطبيعي بواسطة العبادة؟ عندما يرتبط روحي بروح الله في العبادة، أشعر بشيء. اعتقد روبرت ويبر أن «عصرنا الدنيوي» هذا الذي فيه «تم الابتعاد عن الله» يجعل «من الصعب اختبار العبادة كالطريقة التي تجعلنا نلتقي مع الذي يسمو على الطبيعة».

قال توزر: «ينبغي أن تأتي العبادة دائماً من سلوك داخلي. تشمل على عدة عوامل بما فيها العقلي والروحي والعاطفي». واتفق جاك هايفورد أن «لكل مؤمن حكمة ليدرك أن العبادة ليست خبرة ذات اتجاه واحد لشخصية الإنسان ... حسب ما ورد في الكتاب المقدس العبادة بالروح والحق تشمل على كل كينونة الإنسان — الروح والعقل والعواطف والجسد».

ليست العبادة عن فرح الأخذ، بل عن فرح العطاء. ولكن في النهاية نأخذ أكثر مما نعطي. عندما نزل إبرهيم من الجبل بعد ما أعطى إسحق عقلياً وعاطفياً لله، لم يأخذ معه ما أعطاه لله فحسب، بل أخذ أيضاً البركة الأخرى التي أعلنها الله بواسطة ملاكه. اطاع إبرهيم الله بلا تحفظ أو شك. لا بد ان ما أعطاه الله كان مصدر فرح عظيم لإبرهيم لسنين عدة. لا يمكننا أن نعطي أكثر مما يعطي الله. جميع الذين باركوا الله في العبادة سيباركهم هو أيضاً. بعد ما وصف لوقا صعود المسيح، قال بان التلاميذ: «رجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم. وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون الله ويباركون الله» (لوقا ٢٤: ٥٢ و٥٣).

من إحدى التعبيرات الأعظم عن الفرح هو الترنيم. ذكر الترنيم في الكتاب المقدس بانه تعبير عن العبادة. عندما قال بولس «... مرتلين في قلوبكم للرب» (أفسس ٥: ١٩) كان يتحدث عن الترنيم. الترتيل في القلب يجب التعبير عنه بقلب طاهر يحمد الله. وفي آية مشابهة ناشد بولس: «مترنمين في قلوبكم للرب» (كولوسي ٣: ١٦) فرح الشكر في القلب معبر عنه أيضاً بالترانيم. «يمكن للغناء ان ينتج أعظم فرح لا يمكن الحصول عليه بأية طريقة أخرى». «للترانيم المقدسة قوة تجعل النفس تبتسم» (مقتبس أيوبري جنسون). كان الترنيم جزء من العبادة في العهد القديم منذ الوقت الذي أخرج فيه الله إسرائيل من عبودية مصر.

قد يعبر عن الشعور أيضاً في وضع جسم العابد. كما ذكرنا سابقاً فان السجود على الأرض والركوع ورفع الأيادي كلها مذكورة في الأسفار المقدسة في سياق الحديث عن العبادة انها تعبر عما في القلب. الشيء المهم بخصوص وضع الجسم هو ان وضع الجسم يجب ان يكون تعبيراً صادقاً عن الكيفية التي يشعر بها نحو الله، وليس بالظاهر لكي يراه الآخرون.

الفرح الذي يملأ القب

معظم أديان العالم يدفعها الخوف. يقترب العُبَّاد من مقدسات آلهتهم في خوف ورهبة، يتمنون أن يتفادوا كارثة ما قد يجلبها غضب الإله المزعوم. بعد ما يأتوا لإلهتم بما يظنون انها عطايا مناسبة يمضون عادة بشك في ما إذا كان التقدمات سترضيه حقاً. كان هذا أيضاً ميزة نظام الذبائح في العهد القديم إلى حد ما. وأما الآن (بسبب ذبيحة المسيح الذي هو حمل الله) يمكن للعباد أن يقتربوا إلى عرش الله «بفرح عظيم» يأتي بالاشباع إلى القلب. حتى للذين يُضطهدون قال يسوع: «افرحوا وتهللوا. لأن أجركم عظيم في السموات ...» (متى ٥: ١٢). إن كنا نفرح في اضطهاد فكم بالأحرى نفرح عند الوقوف «أمام مجده بلا عيب في الابتهاج» (يهوذا ٢٤)!

من إحدى أعظم رغباتنا هي القناعة في ما نعمل. يصارع شاب مع قراره لقبول عمل ما، لأنه يريد أن يستغل حياته في شيء يمكن أن يأتي إليه بالرضى والقناعة. تحدثتُ مع أُم شابة كانت تريد البحث عن العمل بالإضافة إلى مسؤولياتها المنزلية لأنها لم «تشعر بالإشباع» حسب قولها. اصبحت القناعة مرادفةً للسعادة. لا يكون الفرق واضحاً أحياناً بين اشتياقات النفس الداخلية وبين رغبات الجسد. السعي وراء إشباع الجسد لا يرضى أبداً اشتياقات النفس. خلقنا الله لنؤدي وظيفتنا ونجد القناعة في التوافق معه. لقد خلقنا بحيث نكون مسكناً له (١ كورنثوس ٦: ١٩). عندما نحاول ان نضغط على كل شيء آخر في العالم لندخله في المكان الذي جعله الله لنفسه، ستهرب منا القناعة. العبادة الحقيقية تملأ ذلك الفراغ؛ وتدعو الله إلى حياتنا. يوجد الاشباع في الشركة مع الله.

صدق قيبس عندما قال: «العبادة لا تعطي الفرح للعابد فحسب بل تؤدي أيضاً إلى إشباع نفسي عميق. هذا عكس إشباع النفس الناتج من العمل المفضل مع النفس». عن طريق العبادة يعرف العباد الله بطريقة أفضل ويشكروه أكثر. ان تعرفه يعني أن تحبه. وتحبه يعني ان تكرمه وتمجده. وإكرامه وتمجيده يعني أن تملأ قلبك به — الاشباع به. وعند الاشباع به ندرك انه يهتم بنا، ونعلم ان لنا مكان امتياز معه — أي عندما ندعوه يسمع إلينا. يأتي الرضى عندما نبدأ نرى الحياة من وجهة نظره، ونصنع قرارات من وجهة النظر تلك، ونجد الهدف لوجودنا في وجهة النظر تلك.

الفرح الذي يؤدي إلى الرهبة

يوضع اهتمام كبير في هذه الأيام على ما يختبره الناس في العبادة. السخرية هي انه ليس كل ما يتم اختباره في خدمات الكنيسة يكون مؤهلاً للعبادة. قد تكون جماعة المصلين خبرة مثيرة ومحركة للشعور، ومع ذلك لا تكون عبادة على الاطلاق. الشيء الذي نختبره هو الذي يلازمنا لوقت طويل. لهذا يضع قادة العبادة التشديد على الخبرة. لم يرجعوا مرات ومرات أخرى فحسب، بل يريدون أن يشاركوا خبراتهم أيضاً مع الآخرين. إن لم نفهم حقاً ما هي العبادة، لا ندري ما إذا كانت خبرتنا هي بالحقيقة عبادة. ما الذي يريد الله أن نختبره؟ ما الذي يجب أن نأخذه معنا لنتحدث عنه ونتأمل فيه؟

يريد الله لنا أن نختبر حضوره. ففي العبادة يتم الشركة مع الله، أي حضوره والاتصال معه. في العبادة نتحدث إلى الله، ويكلمنا الله. المعرفة بانك في حضرة إله الكون هي شيء مثير. الخروج من العبادة والقول: «كنت في حضرة الله» هي خبرة يمكن التأمل فيها لمدة أيام. «قد تكون الرهبة (أية طاعة جيدة وتوقير الله والشعور بالعجب) هي السلوك

المفقود أكثر في العبادة العصرية» (مقتبس من كين نيلر). قال وارن ويرسبي: «قد فقد كثير من القديسين النعسانين الشعور بالعجب». يطلب الناس اليوم أن يفهموا ويفسروا كل شيء. وكل ما لا يستطيعون تفسيره يتم تجنبه. لهم مكان صغير في عقولهم للأسرار. هذا الميل قد سلب العبادة سره.

الله غير ملزم بشرح وتبرير افعاله وما يريد للبشر. حتى ولو حاول أن يفعل ذلك سيكون تفسيره فوق ما نستطيع فهمه. لم يسأل إبرهيم الله لماذا طلب منه أن يقدم إسحق ذبيحة. وعندما طلب أيوب من الله أن يبرر افعاله (أيوب ٢٩—٣١)، سكت الله لوقت طويل. وأخيراً أجابه الله — ليس لتوضيح السبب في ما فعل، ولكن ليسأل أيوب (أيوب ٣٨—٤١). كشف الله بان طرقه رائعة جداً إلى حد لا يفهمها الإنسان. مَجّد بولس قائلاً: «يا لعمق غنى الله وحكمته وعمله! ما أبعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» (رومية ١١: ٣٣).

على الرغم من ان الله يعطي المسيحيين اليوم كل حقوق وامتيازات الكهنوت ليقتربوا إليه بثقة، إلا انه لا يعني بان نفعل ذلك بلا مبالاة.الفرح يعني ضمناً احتفالاً، ولكن هذا لا يبرر الاستخفاف به. يريد الله لنا أن نعلم باننا نستطيع أن نتقدم إليه، ويريد لنا أن نطلب أن نكون في حضرته، ولكن تلك المعرفة «مبالغ فيها إذا تصورنا أي شخص يأتي إلى حضرة الله يقفز الى حضنه، ويلف ذراعه حول عنقه وينادیه يا بابا!» (مقتبس من نيلر). الاحتفال والرهبة لا يتعارضان مع بعضهما البعض. الحاجة إلى الوقوف في رهبة قوة الله لا تعني ان لا نحتفل بمحبته واهتمامه بنا. أخبار الأيام الثاني ٢٩: ٣٠ هو من أحد النصوص العديدة التي تذكر الابتهاج والتسبيح في مفهوم النص الواحد مع السجود. تحدث نحميا عن الله بانه «العظيم المرهوب» بينما يسبحه في الوقت نفسه بسبب أمانته في حفظ العهود ولطفه (نحميا ١: ٥). «... قلبي لا يهاب سوى كلامك. أبتهج بكلامك ...» (مزمور ١١٩: ١٦١ و١٦٢).

الخلاصة

خرجتُ وزوجتي باربارا مؤخراً لتناول العشاء مساء الأحد بعد خدمة العبادة. فجلسنا نطلب بعض السندويتشات. وكان عند الطاولة خلفنا مباشرة يجلس بهدوء زوجان اخران، الى ان انضم إليهما شخصان آخران أو ثلاثة. لم نكن نحاول الاستماع إلى ما كانوا يتحدثون عنه، ولكنهم كانوا يتحدثون بحيث لم نستطع تجنب سماعهم. كانوا فرحين! العبارة التي جذبت انتباهي هي: «لقد قضينا وقتاً ممتعاً حقاً في الكنيسة هذه الأمسية!» منذ ذلك اللحظة أردت أن أعرف ما الذى كانوا يتحدثون عنه.

كلما اصغيت إليهم كلما زاد فضولي ان كانوا يتحدثون عن العبادة حقاً . أني لا أعارض أن يتحدث الناس بانبساط عن قضاء وقتاً ممتعاً في العبادة، ولكن يبدو من حديثهم وكأنهم كانوا قادمين من حفل موسيقي. سمعتهم يذكرون «سلم» موسيقي معين، وعن الطريقة التي قاد بها مقدم الترانيم. وعلَّقَ كل من كان جالساً عن الأداء. اردت ان أسمع عن الإشارة إلى عظمة الله الذي وحده يستحق العبادة. بحثت دون جدوى عن بعض الدلائل عن الرهبة والإكرام لله. لكن يبدو ان انتباههم لم يكن تجاه رهبة الله، ولكن رهبة الأداء.

تحدث يسوع عن مثل هذا النوع من العبادة في إنجيل لوقا ١٦: ١٥ قائلاً: «أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس. ولكن الله يعرف قلوبكم. ان المتعلي عند الناس هو رجس قدام الله». علق غيبس على هذا النص قائلا:

> كم يجب أن يفحص هذا قلب كل مسيحي! من المحزن ان ترنم أروع الترانيم وترتل بطريقة رائعة جداً أجمل تراتيل العبادة، وتشرح بالكلام بلغة الكتاب المقدس عبادة الجماعة؛ ومع ذلك تخفق في الوصول إلى أُذن الله، ولا تجد تأييد إلهي.

لا بد أن تأتي العبادة من قلب مركَّز على الله. ذلك هو القلب الذي يجد الاكتفاء والإشباع في تمجيد وتسبيح اسمه القدوس.

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧